العرب
الجمعة 2019/12/13
السنة 42 العدد 11557

دراما الحب والموت ومأزق الإنسان في التاريخ

«ملحمة سيبيريا» الروسية أوبرا القرن العشرين التي لا تموت

مـرّت أربعون عاما على ظهور فيلم "سـيبيرياد" أو "الملحمة السـيبيرية" للمخرج الروسي الشهير أندريه كونتشالوفسكي، الذي استحق عن جدارة الفوز بجائزة لجنة التحكيم الكبرى في مهرجان كان عام 1979.

في الطريق إلى الحرب العالمية

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

"سـيبيرياد" Siberiade أو "الملحمة السـيبيرية"، فيلم كبير تـم إنتاجه في العـام 1979 فـي الاتحـاد السـوفييتي وتوفـرت لـه إمكانيـات كبيـرة، وهو الذي فتح الطريق أمـام مخرجه أندريه كونتشالوفسـكي لكي يذهب للعمل في هوليـوود، حيـث أخرج بضعـة أفلام لـم تحقق نجاحـا كبيرا أشـهرها فيلم "القطـار الهـارب" The Runaway Train الذي كتب قصته المخرج الياباني أكيرا كيروسـاوا، وقام ببطولتـه جون فويت وإريك روبرتس.

ورغم أن كونتشالوفسـكي (82 سنة) ينتمي إلـى أسـرة أرسـتقراطية، ولد وعاش في موسـكو، ودرس الموسيقى لمـدة عشـر سـنوات وتخصّـص في البيانـو، فقـد اتجـه إلـى الإخـراج السـينمائي وبرزت موهبته المتوهّجة منـذ أول أفلامـه الروائيـة الطويلـة، "المدرّس الأول" (1965).

الفيلم يروي تاريخ الاتحاد السوفييتي وما شهده من تغيرات، ولكن من خلال الفرد وسط تقلبات التاريخ

أما "الملحمة السيبيرية" فهو أقرب ما يكون إلى قصيدة سـينمائية مقسّمة إلـى مقاطع، تبـدو كما لـو كانت نوعا من "السـيرة الذاتية" رغم أن صاحبها لا ينتمـي إلى تلـك المنطقة الشـديدة الخصوصيـة مـن بقـاع روسـيا التي تتميّـز بطبيعتها السـاحرة. والحقيقة أن سيبيريا مستقرة في أذهان الكثيرين باعتبارهـا منفى جليديا باردا وأراضي شاسـعة جـرداء، في حيـن يوجد فيها الكثيـر من المناطق الخضـراء المليئة بالغابات، وهي البيئـة التي تدور فيها معظم فصول فيلمنا هذا.

ينقسـم الفيلم إلى أربعة أجزاء تقع فـي 32 فصلا، تمتد لأربع سـاعات و35 دقيقة. يحمل كل فصل منها عنوانا، كما يحدّد تاريخ الفتـرة الزمنية التي تدور فيهـا الأحداث. ويبدأ الفيلـم في أوائل القرن العشـرين، عام 1904 وينتهي قرب أواخـر السـتينات، أي أن أحداثه تمتد لأكثر من ستين عاما.

تتركّز الدراما على حياة عائلتين في قرية سـيبيرية تقع على هامش التاريخ اسـمها "يـلان"، ويروي قصـة صراع، ولكن أيضا قصة حـب. وبين القصتين قصة روسـيا نفسـها قبل وبعد الثورة الاشـتراكية، مرورا بالحرب الأهلية في العشـرينات ثم الحرب العالمية الثانية، ثم الانتقـال إلى التصنيـع بعد الحرب واكتشـاف الغـاز في سـيبيريا في تلك القرية المهملة، وكيف سيغيّر الاكتشاف حياة البشر إلى الأبد.

تاريخ البلد والإنسان

ليـس هـذا فيلما من أفـلام الدعاية السـوفييتية، كمـا أنـه ليـس فيلمـا سياسيا رغم حضور المشهد السياسي فيه بقوة، ولكنه فيلم عن الإنسان- الفرد وسط تقلبات التاريخ، كيف تنعكس تلك التقلبات على مصائر الأفراد، كيف ينمو الحب ثم ينتهي دون أن يتلاشـى، تاركا فـي القلب غصة، وكيف يكـون الصراع الطبقـي الخفـي خلفية لقصة شـبيهة بقصة روميو وجوليت، تصطبغ بالدماء، وبشراسـة الانتقام، يتبعها الخروج من القرية إلى العالم المفتوح.

إننـا أمام عمل لا مثيل له، قورن لدى البعض بفيلم أمير كوستوريتشا "تحت الأرض" لكن يمكن مقارنته أيضا بتحفة برتولوتشـي "1900"، وبالفيلم الألماني الملحمي "هايمـات" (أو الوطن) Heimat لأدغـار رايتز. إنه يـروي تاريخ الاتحاد السـوفييتي وما وقع فيه مـن تغيرات، ولكن من خلال الإنسـان البسيط، الذي يعتقـد أن لا دخل له في تقرير مصير كل ما يحدث، يصارع من أجل البقاء، ولكنه يجد نفسه رغما عنه، في أتون الصراع.

وكمـا كان "1900" عـن عائلتيـن تنتميـان إلـى طبقتيـن متمايزتيـن، هنا أيضـا عائلتان: الأولى مـن الرعاة وقاطعـي الأشـجار، أي مـن الطبقـة العاملة، والثانية من التجار والوسطاء، أي من البورجوازية الصغيرة.

الأولـى تتطلع إلـى التغييـر الذي تبشّـر به طلائـع الثورة السـوفييتية، والثانيـة تميـل إلى التشـبّث بالوضع القائم. من العائلة الأولى يقع "كويا" في غرام "ناسـتيا" من العائلة الثانية. والد كويا العجـوز "أفونيـا" يقضي حياته تقريبـا في الغابة، يشـقّ وحـده طريقا عن طريق قطع الأشـجار. لا يهم إلى أين يؤدي هذا الطريـق بل المهم أن "يخرج بعيدا عن هنا"، كما يقول، بينما يحذّره أحد رجـال عائلته من أن هـذا الطريق "سيؤدي مباشرة إلى لحية الشيطان".

كويـا سـيدافع عـن حبه لناسـتيا وسيهرب معها من القرية، حيث يلتحق الاثنـان بالثورة، لكننا لـن نرى ذلك بل سـنعرف فقط أن ناسـتيا ماتـت عندما يعود كويا بعد سنوات إلى القرية ومعه ابنه "نيكولاي" من ناستيا.

نيكـولاي سـيكبر وسـيقع في حب فتاة اسمها "أناسـتازيا" قبل أن يذهب لينضم إلـى الجيش ويخـوض الحرب العالميـة الثانية. وعندمـا يعود تكون الأمـور على وشـك التغييـر الكبير في القرية وفي سيبيريا كلها.

ليس مـن الممكن تلخيـص أحداث هـذا العمـل المتعـدّد الأوجـه، المليء بالشـخصيات والأحداث، والذي يحافظ رغم ذلك،على الخيط الأساسـي والفكرة الرئيسية، بفضل المخرج المحنك، الذي يقود الأحـداث متحكما في إيقاع الفيلم بحيث يمنحنا الإحسـاس بمرور الزمن، ولكنه لا يفقد فيلمه قط شاعريته وحسه العميـق بالتاريـخ وتعبيره عـن مأزق الإنسان في التاريخ.

سحر الطبيعة والحب

التاريـخ والفـرد.. أو الفرد في إطار التاريـخ، أحلامـه وآمالـه وتطلعاتـه الشـخصية المقدّر لهـا أن تنتهي دائما بالمـوت، أي عـدم التحقّـق تماما، أما البـلاد فهي تمضـي قدما إلـى الأمام، تتجاوز جراحها وتطوي وراءها صفحة الماضي.

لـم يكـن اختيـار سـيبيريا مكانا للأحداث، اختيارا عشـوائيا بل مقصود تمامـا، ليـس فقـط لجمـال الطبيعـة وفظريتهـا وعذوبتها وكثافـة ما يتولّد عـن مناظرها من تأثيرات خاصة تشـي بالماضـي، بـل ولأنها أيضـا المنطقة التي الأكثر مقاومة للجديد، فقد خضعت طويلا للتقاليد والأساطير.

هنـاك لمحـات كثيرة مـن الواقعية السحرية في الفيلم: الفرخان الصغيران اللـذان يظهران لأبطالنا في كل العصور وعلى مدى الزمن، وكأنهما يشهدان على ما يجري حولهمـا، لا نعرف ما إذا كانا حقيقـة أم خيالا؟ الطيور التي تظهر في لحظات معينة، تطير وتتشكّل في أشكال هندسية بديعة في الفضاء وهي تصدح بالموسـيقى. الخيال الذي يتسـلّل إلى الواقـع ويطغـى عليه، مـن الكوابيس والأحلام والرؤى.

الواقعية السحرية

تكرار ظهور الفرخين، وتكرار ظهور الطيور التي تصدح في الجو، فكرة لحية الشـيطان التي يؤمن سكان القرية بأنها مصدر الشر، لكن البطل الذي يتجسّد في ثلاثـة أجيال يرى أنهـا مصدر للخير، وستكون مصدرا للنفط والغاز.

ليس من الممكن نسـيان مشـهد من مشاهد الفيلم الأولى وكويا وأبيه وصديقتـه الطفلـة، يدفعـون زلاجة ضخمة فوق الثلج وباقي أهل القرية يطاردونهم، يريدون أن يسـتمتعوا بركوبها أيضا، وسرعان ما نكتشف أنهـا قـارب يمكنـه الانـزلاق على الثلـج والماء، وهو مشـهد يفيض بالحيـاة ويعبـر عـن الرغبـة في التحرّر من أسر المكان وقيوده عند كويا البطل الصغير الذي سـيكبر ويغادر.

الشـعر فـي الفيلـم يمكـن الإحسـاس بـه مـن التفاصيـل الصغيـرة التي تدخل فـي إطار الصـورة الأكبـر، بدلالاتهـا الخاصـة، حديث الإنسـان إلى الأشـجار كمـا لـو كان يحـدّث روحا من أرواح الأجداد، يناجيها ويتعهدها بالرعاية.

والتشـكيل بالحريق: في وقت متقدّم مـن الفيلم عندمـا يلقي نيكـولاي بقايا سيجارة مشـتعلة في البركة القريبة من الغابة، تشتعل وتتفجر بالنيران في بؤر متعددة واحدة تلو أخرى. إنها تشي بما سيقع في المستقبل عندما ينفجر أنبوب الغاز بسبب الضغط العالي، لكنها تشيع في المشـهد جمالية أخاذة.. تجمع بين النـار والطبيعة، رغم ما ترمـز إليه من استهتار الإنسان بالطبيعة. هناك أيضا اهتمام كبيـر بالتكوينات البصرية التي تبـرز جمـال الطبيعة وتضع الإنسـان دائمـا فـي إطـار المـكان الطبيعـي: التكويـن: لقطة الموت فـي الحرب. في خضم الحرب ألكسي ينجو بينما يصاب معظم رفاق فصيلته.

يحاول إنقاذ قائد الفصيلة، الضابط الممدّد على الأرض وسط الدمار مصابا، وإلى جواره مباشـرة ماسـورة أصيبت بقذيفة، يخرج منها سـائل أسود يتدفّق في مقدّمة الصـورة بينما يقبض بطلنا ألكسـي علـى بطـن البطل الـذي برزت أحشاؤه ويسـتغيث بصوت عالٍ، بينما تتوالى القذائف في أرض مليئة بالوحل والطين تنتشـر فيها أشلاء الجثث. إنها صورة "عضوية" لجحيم الحرب لا مثيل لها.

نيكـولاي سـيحاول اسـتكمال حلم أبيه باستكمال شـق الطريق في الغابة، لكنه سـيهرم ويضعف ويموت ويتجمع الذباب والحشرات فوق جسده لتنهشه.

أما ألكسـي فسـيغادر إلى الحرب وقبل ذلك يقيم علاقة حب سـريعة مع "تاليا" التـي تعده بانتظـاره، وعندما يعود في السـتينات كمهنـدس متخصّص في التنقيب عن البترول والغاز، يجدها بالفعل، لكنه لا يتذكرها تماما.

أما هي فقـد خرجت من القرية تريـد أن تـرى العالـم، وجربـت حظهـا فعملت على متن سـفينة، لكـن قدرهـا كان أن تعـود إلـى جذورها. وستكتشـف تاليا أن ما كانت تنتظره لا وجـود لـه، ولكن بعد فوات الأوان.

الفيلم يبرز ما يدفعه الإنسـان من ثمن وهـو يواجه قـوة عاتية مـن التحديـث الصناعـي تريـد أن تقضـي علـى كل مـا يتعلـق بماضيه وحاضره: ذكرياته التي تطارده، أجـداده وآباؤه، الحب الـذي لا يكتمـل، الحبيبة التي تموت، الفـراق المكتوب، القتل والتشـفي، بيروقراطية الحزب في العاصمة لا يبدو أنها تتفهم طبيعـة المنطقة التـي تريد أن تبـدأ الحفـر فيها للكشـف عن الغاز.

سـيطرح المهنـدس الموفـد مـن العاصمـة أمام سـكان القرية: إمـا إغـراق المنطقة بأسـرها في بحر صناعي لتوليد الكهربـاء بإقامة محطة هيدروليكية ضخمـة، أو الحفر من أجل الحصـول علـى النفط مـع الإبقاء على الأرض. ولكن هل ستبقى الأرض؟ وماذا سـيحدث للطبيعـة.. للبيئـة؟ وما الذي سـتحدثه الحرائق التي سـتندلع أيضا نتيجة أخطاء البشر؟

لقد قضوا علـى الطبيعة في النهاية مقابـل الحصـول علـى النفـط، تلوثت البيئـة، احتـرق البجع الجميـل الذي رأيناه يمرح ويسـرح في مشاهد كثيرة بحرية في المنطقة، وتم بقسوة تجريف مقابر الأجداد.

لقطات من الأرشيف

يسـتخدم أندريه كونتشالوفسـكي الكثيـر مـن لقطـات الأرشـيف النادرة التـي تربط بين فصول الفيلم المختلفة، تلخـص أحـداث الثـورة السـوفييتية ومنهـا اقتحـام قصـر الشـتاء فـي سـانت بطرسـبورغ، ظهور لينين يقود الجماهير، ثم أحداث الحرب الأهلية، ثم الحرب العالمية الثانية التي لا يشعر بهـا السـكان فـي تلـك القرية السيبيرية، دخول القوات السـوفييتية برلين، الاحتفالات الشـعبية بنهايـة الحـرب، بدء خطـط التصنيـع الثقيل بعد الحـرب، رائد الفضاء غاغارين يجـوب العالم.. إلخ.

"سـيبيرياد" اكتشاف لقوة أداء وموهبة الممثل العملاق أندريه ميخالكوف (74 سـنة)، الشقيق الأصغر للمخرج نفسـه، وهو الـذي يقوم بدور ألكسـي، ببراعـة، منتقلا فـي خفة بين الأداء الناعـم حينا، والتأمل الحزين في المصير المنتظر لقريته حينا آخر.

إنـه الابن الضـال الذي يعـود إلى القرية، يبشّـر أهلها بمسـتقبل أفضل، لكنه لا يسـتطيع أن يقـف في وجه الآلة البيروقراطية الضخمة التي تفرض على المنطقة ما لا يريده الناس ثمنا للازدهار الاقتصادي.

أندريـه ميخالكوف سـيصبح أيضا مـن كبـار المخرجيـن الـروس، وهـو الذي سـيخرج تحفا فنيـة مثل "العيون السـوداء" (1987) Dark Eyes، و"حرقتـه الشـمس" (1994) Burny by the Sun، وقد أخرج منه جـزءا ثانيا في 2010، كما أنه صاحب الفيلـم البديع "أورغـا" Urgha (أو قريبـا من عـدن) الذي فـاز بجائزة "الأسـد الذهبي" في مهرجان فينيسـيا السينمائي عام 1991.

> أربعون عاما مرّت على ظهور فيلم «الملحمة السيبيرية» تحفة المخرج الروسي أندريه كونتشالوفسكي، التي لا تزال خالدة